

وصف من اتبع الهوى

* لقد ذم الله تعالى في كتابه العزيز من يتبع الهوى وعابهم على ذلك الاتباع. يقول الله -تعالى- { وَكَانَ مِنْ قَرِيْبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلِكُنَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [محمد: 13، 14]. فالقرية التي أخرجته هي مكة . * وبخبر -سبحانه وتعالى- بأن هناك قرى قد أهلكهم الله لما كذبوا، وبخبر بالسبب، وهو أنهم زين لهم سوء أعمالهم، واتبعوا أهواءهم؛ فأعمالهم السيئة هي: الكفر، والكذب والتكذيب بالرسول، ورد ما جاءوا به، وكل ذلك فيه اتباع للأهواء. * وقد زين للبعض سوء عمله، واتبعوا أهواءهم، وقد أخبر الله -تعالى- بدم مثل هذا بقوله: { أَقْمَنَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ قَرَاهُ حَسَنًا قَانَ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ تَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ } [فاطر: 8]. * فالذين يتبعون الهوى، لا شك أنهم قد استحسنوا العمل السيئ، واتبعوه، واستقبحوا الصالحات وتركوها، فصار الحسن عندهم قبيحا، والقبيح عندهم حسنا؛ فكانوا لذلك هالكين. * ولا بد أن زينت لهم الأعمال السيئة، فراوها حسنة، واتبعوا في ذلك أهواءهم. * وقد أخبر الله -تعالى- بأنهم لا يستنون مع غيرهم، يقول -تعالى- { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [محمد: 16]. * فذم الله الذين اتبعوا أهواءهم في هذه الآية؛ لأنهم لا يستفيدون مما يسمعون، ولا يتأثرون بموعظة، ولا يعنون أو يعقلون ما يرشدون به. * وذكر -تعالى- أنهم يستمعون القرآن الذي هو غاية في الإعجاز والبلاغة والبيان، ولكن بحال بينهم وبين فهمه وعقله؛ فكأنهم لا يسمعون أصلا، أو كأنهم قد جيل بينهم وبين سماعه، فإذا خرجوا بعد سماعه يقولون لمن أوتي العلم: { مَاذَا قَالَ آنِفًا } [محمد: 16]. كأنهم ما سمعوا. * ما الذي حال بينهم وبين الفهم مع أن الكلام فصيح؟! ومع كونهم عربا ويفهمون ويعقلون؟ * إن الذي حال بينهم وبين ذلك ما ذكره الله عنهم أنهم اتبعوا أهواءهم؛ لأن الله -تعالى- طبع على قلوبهم، وطمس على معرفتهم حيث اتبعوا أهواءهم، فلم يستفيدوا. فإذا رأيت الذين يهربون من مجالس الذكر فقل: إنهم اتبعوا أهواءهم. * وإذا رأيت الذي يستمعون ولكن لا يستفيدون، فقل: هؤلاء من الذين اتبعوا أهواءهم، بل من الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم؛ حيث طمست معرفتهم التي وهبت لهم، فكانوا بذلك مثل ما ذكر الله عن المنافقين: { صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي قَهْمٌ لَا يَبْرَجُونَ } [البقرة: 18]. معلوم أن لهم أسماع، ولكن لا ينفعهم ما يسمعون، ولهم أبصار، ولكن لا ينفعهم ما يقرءون أو ينظرون، ولهم عقول، ولكن لا ينفعهم ما يتفكرون. * هؤلاء هم نصيب النار الذين أعد لهم الله لها، كما ذكرهم في قوله -تعالى- { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الأعراف: 179]. * فهذا وصف الذين اتبعوا أهواءهم، يستمعون ولا يفهمون، يقرءون ولا يعتبرون، يعقلون ولا يتأملون، لم تنفعهم قلوبهم، وكذلك أبصارهم وأسماعهم، لم يستفيدوا بها. * يقول بعض المتأخرين في وصف من اتبعوا الهوى: "صم ولو سمعوا، بكم ولو نطقوا، عمي ولو نظروا...!!" عموما عن الحق، صموا عن تدبيره! ولكن ما الذي أعماههم؟! الهوى! ما الذي أصمهم؟! الهوى! * ورد في بعض الآثار: "الهوى يعمي ويصم"؛ لما أنهم صار هواهم مخالفا لما جاء به الشرع.. أصم أذانهم، وأعمى أبصارهم، وأصبحوا كأنهم لا يستفيدون من حواسهم التي منحهم الله إياها. * وقد وصف الله الكافرين بقوله: { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي قَهْمٌ لَا يَفْقَهُونَ } [البقرة: 171]. * يقول المفسرون: إن الله ضرب هذا المثل للكفار الذين حيل بينهم وبين فهم الحق، واتبعوا شهواتهم وميلهم، فضرب لهم مثلا بمن ينادي بهائم، كغنم ونحوها؛ فالنعيق هو نداء الغنم، والأغنام لا تدري ما تقول، ولكنها تسمع الصوت فتتبع ذلك الصوت. * وهذا مثل العصاة والطغاة، الذين يدعون إلى الحق فلا يقبلونه، ولا يتقبلونه؛ كذلك يدعون إلى الإيمان فيكفرون! * بين لهم الحق فلا يقبلونه، ولا يرضون بموعظة، ولا يقبلون إرشادا، ولا يتأثرون بتذكير، حال بينهم وبين ذلك كله اتباع أهواءهم، بسبب ميلهم إلى الشهوات والمجرمات. * ولقد ذكر الله -تعالى- أن الهوى من جملة المعبودات التي تُعبد، قال -تعالى- { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَةَ اللَّهِ عَلَى عِلْمٍ وَحَتَّمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عِشَانَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية: 23]. * أول أعماله أنه اتخذ إلهه هواه؛ فهو لا يهوى شيئا إلا ركبته، كلما منته نفسه بشيء لم يفكر هل هو خير أم شر؟ هل هو طاعة أم معصية؟ بل يقدم عليه ويقتمحه، ولو كان ذنبا كبيرا أو صغيرا. * ومثل هذا قد ضل وهو على علم ومعرفة ولكنه لم يقبل الخير؛ فأصبح من الضالين، بحيث أنه لا يقبل الإرشاد، ولا يقبل التذكير، بل إذا سمعه ابتعد عنه، وعن الطرق التي توصل الخير إلى قلبه. * وقد وصفه الله في آية أخرى بقوله -تعالى- { وَإِذَا ثَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَى مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا } [لقمان: 7]. ما الذي حمله على ذلك؟! * إذا سمع القرآن والموعظة، وإذا مر بأهل مسجد أو مدرسة لا يتركة هواه بأن يجلس عندهم، بل يصد ويعرض؛ ويكاد أن يصم أذنيه مخافة أن يدخل عليه شيء يفسد عليه ميله وشهوته وهواه، { كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا } أي: ثقلا، لا يستفيد، ولا يسمع ما يفيد. * هذا وصف الذين يتبعون أهواءهم، ومن جملتهم المشركون الذين صدهم الهوى عن قبول رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- لذلك أعرضوا عنه، كما ذكر الله -تعالى- عنهم: { فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ قَهْمٌ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْبَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنَتِكَ جَبَابٌ قَاعَمَلٌ إِنَّا غَامِلُونَ } [فصلت: 4، 5]. انظر كيف وصفوا أنفسهم بهذه الأوصاف، اعترافا منهم!! * لقد صدهم الهوى عما يدعوهم إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان قلوبهم في أغطية لا يصل إليها الخير، ولا تتقبل الدعوة. { وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } [الأنعام: 25] اعترفوا بأنهم لا يسمعون، وكان في أذانهم وقرا، ومن بيننا وبينك حجاب، يعني حاجز منيع يحجز كلامك عنا، ولا ننتفع به. * وهذا كما وقع في الأولين فإنه يقع في المتأخرين. فالذين ابتعدوا عن الخير وأهله هم الذين اتبعوا ما تهواه أنفسهم وما تميل إليه، والذين يميلون إلى الظن واتباع الهوى أقوالهم وأفعالهم ناتجة عن ذلك. * يقول -تعالى- { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْبِيَاءِ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } [النجم: 27، 28]. * وهكذا ذكرهم في قوله -تعالى- { الْكُفْرُ الَّذِي تِلْكَ الْأَشْيَاءُ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُمْ صَبْرِي إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم: 21-23]. فالظن واتباعهم ما تهوى الأنفس هو الذي أوقعهم في الكفر والمعاصي.. وهذا نتيجة اتباع الهوى. * ولأجل ذلك ذكر الله -تعالى- أن الهوى معبود في موضعين من القرآن في سورة الفرقان في قوله -تعالى- { أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا } الفرقان: 43 وفي سورة الجاثية قوله -تعالى- { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَةَ اللَّهِ عَلَى عِلْمٍ وَحَتَّمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عِشَانَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية: 23]. ففي هذين الموضعين ذكر الله -تعالى- أن الهوى إله، وتأليهه معناه تقديس القلوب وتعظيمها له. وقد ذكرنا أن العلماء فسروا ذلك بأنه لا يهوى شيئا إلا ركبته، وأنه ورد في الأثر: "ما تحت أديم السماء إله يُعبد أشد من هوى مُتبع". * فاتباع الهوى، والميل النفسي هو الذي يؤدي إلى ما نراه كثيرا مما هو واقع من كثير من الناس في هذه الأزمنة! * فالذين يصدون عن الخير وعن مجالس اتبعوا أهواءهم، والذين يعضون الجلساء الصالحين، ويألفون جلساء الشر والفسقة والعصاة.. هؤلاء ممن اتبعوا أهواءهم واتبعوا الشهوات.. * وهم في هذا لا ينظرون إلى تلك الشهوات من حيث تحريمها أو إباحتها، فجزتهم تلك الشهوات إلى الحرام؛ ولا شك أن ذلك نتيجة اتباعهم أهوائهم، ولو كان شرا.